الفكر الاسلامى الحديث

وصلته بالاستعمار الغربى

تأليف الدكتور محمد البهى

عرض وتحليل

الأستاذ سعيد حمزه مكرم المحامى

لم تكد الحرب العالمية الأولى تتوارى ، حتى أصبح الجزء الأكبر من العالم الإسلامى منطقة نفوذ مستقر أو يكاد للمستعمر الغربى .

ولعل من الواضح أن الاستعمار لم يكن فى استطاعته أن يبسط نفوذه وسيطرته على هذا النحو المؤسف على هذه المنطقة من العالم بوسائله العسكرية فحسب ، بل كان من الذكاء بحيث لم يشغله الغزو العسكرى عن توجيه حملات خبيثة منظمة إلى معنويات الشعوب الإسلامية .

ومنذ اللحظة الأولى للاستعمار فى الرقعة الإسلامية وهو يكيد للإسلام بإهدار هذا النبع الأصيل فى النفس المسلمة فى مسارب جانبية ملتوية ؛ فمضى يعمل دائباً على توجيه الفكر الإسلامى وجهات طائشة منحرفة ، تارة بتدبير أعوانه من أبنائه ، وأخرى بخيانة صنائعه من أبناء الشعوب الإسلامية المستعمرة .

وهكذا تجاذبت الفكر الإسلامى منذ بداية الاستعمار الغربى إلى الآن تيارات متضاربة ؛ فإذا برزت حركة تنتسب ظلماً إلى الإسلام ، وتدعى التقدمية فى فهمه وتطبيقه — وهدفها المقنع أو السافر صرف المسلمين عن مقاومة الاستعمار والتمكين لنفوذه بينهم — ! تصدت لها حركة مقابلة ؛ تفضح هذا الاتجاه وتقاومه ! . وإذا لبس الاستشراق مسوح العلماء ، وأقبل على التراث الإسلامى يشوه معالمه وينال من جلاله ، تصدى له فريق يقظ من المسلمين يمزق عن وجهه أقنعة الزيف والتضليل ! .

ومنذ ذلك العهد البعيد والفكر الإسلامى فى أزمة ، بل فى محنة ، ومن حقه علينا أن نرفع من طريقه السدود والحواجز .

ولئن كان من أوليات حل الأزمة — أية أزمة — الكشف عن جذورها البعيدة ، والإحاطة بأسبابها ودوافعها ، وتطوراتها ، ونتائجها ، حتى تثمر محاولات التصفية والعلاج ؛ فقد تصدى لهذه المحاولة الجليلة الدكتور محمد البهى فى بحثه القيم عن « الفكر الإسلامى الحديث وعلاقته بالاستعمار الغربى » .

فى يقظة واعية يأخذ الدكتور البهى فى رصد الحركات الفكرية التى برزت فى الشرق الإسلامى من نقطة انطلاقها ، ويتابع خطواتها فى طرقها الواضحة أو الملتوية ، إلى هدفها القريب أو البعيد .

ففى الهند أخذ السيد أحمد خان يبشر بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية بين المسلمين وهدفه من دعوته التهوين من شأن أية قيمة أخرى فيما وراء الحس والشاهد ، وخاصة الدين ، وبصفة أخص الإسلام — هدف هذه المؤامرة — ويخبط السيد خان فى ميدانه هذا خبط عشواء ؛ فيفسر القرآن تفسيرا طبيعياً ينكر المعجزات ، ويصور النبوة غاية إنسانية مكتسبه عن طريق الرياضة النفسية ، ويشكك فى فرضية الجهاد فى الوقت الحاضر ، ويدعو إلى مايسميه بإنسانية الأديان ! !

وبين غيوم هذه الشكوك التى بثها السيد خان ظهرت القاديانية ، ويدعى ميرزا غلام أحمد صاحب هذه النحلة أنه المهدى ، وأن عيسى ومحمداً قد حلا فيه واذن فهو نبى ! !

ولعل من نافلة القول أن نكشف عن الآثار المدمرة التى تتركها مثل هذه الدعوات المأجورة فى الشعوب التى تنتشر بينها .

ولم يكتف الاستعمار الغربى بتعبئة صنائعه لترويج هذه التيارات المنحرفة فى الفكر الإسلامى الحديث ، بل جند المستشرقين ليحاربوا الإسلام والفكر الإسلامى على طريقتهم (العلمية) !! وللمستشرقين فى دراساتهم هذه نزعتان تستهدف أولاهما إضعاف القيم الإسلامية ، وتمجد الثانية القيم الغربية المسيحية .

وهكذا تتابعت وتساوقت الفكر المنحرفة المغرضة فى فهم الإسلام ؛ كفكرة

تنحية الإسلام عن مجال العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وفكرة توقيت الجهاد بعهد الرسول وعهد صحابته ، أو فكرة إبطاله اليوم ، وفكرة قبول المسلم لولاية غير المسلم تحت ضغط الظروف الدولية ، وفكرة خضوع الإسلام لعوامل التطور والتجدد ، وفكرة تعدد الإسلام بتعدد شعوبه وأجناسه ومصادره ، وفكرة العنصرية فى عدم زواج المسلمة من غير المسلم ، وفكرة التفوق الجنسى فى قوامة الرجل على المرأة إلى آخر هذا التخريج السقيم عن هوى وقصد لمبادىء الإسلام ! !

ثم يعرض الدكتور البهى بعد ذلك للاتجاه المقابل ؛ « اتجاه مقاومة الاستعمار الغربى » ويتميز هذا الاتجاه أيضاً بنزعتين ؛ أولاهما نقد المذاهب الهائلة للاستعمار ، والكشف عن مؤامراتها الفكرية . وتعنى الثانية بوضع مناهج فكرية جديدة تدعو إلى اليقظة ، وتدعم مقومات الشخصية الإسلامية فى مواجهة مؤامرات الاستعمار . وما يدور فى فلكه من استشراق وأذناب . . وكان فى طليعة رواد هذا الميدان ودعاته جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد إقبال .

ويستعرض الدكتور البهى الخطوط العريضة لحركة جمال الدين ، ويقارن بينها وبين حركة محمد بن عبد الوهاب ، من حيث طابع كل منهما ، ومن حيث الظروف العامة والخاصة لكل من الرائدين ، ثم ينتهى إلى أن حركة جمال الدين كانت رغم مظهرها السياسى حركة إسلامية الجوهر ، ويتحسس البهى فى نشاط جمال الدين الفكرى والعملى أصوله الإسلامية فيجدها واضحة فى دعوته للوحدة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية وفى هجومه على الاستعمار الغربى وبخاصة الإنجليزى ، ونقده لنظم الحكم الاستبدادى فى البلاد الإسلامية ، وفى دعوته إلى نبذ الخصومة بين المسلمين فى الأوطان الإسلامية وبين الشيعة والسنة فى العالم الإسلامى ، وفى نقده لمذهب الدهريين . إذ كان منهجه فى علاج مشكلات المسلمين بصفة عامة هو الرجوع إلى القرآن والدين .

وحين يقف الاستعمار الغربى ليراجع حساب أرباحه وخسائره فى سوق الفكر الإسلامى ، يجد أنه ليس ثم مناص من تصدير بضاعة فكرية جديدة إلى المسلمين وهكذا ظهرت « نزعة التجديد » فى الفكر الإسلامى بالدعوة إلى اصطناع المناهج الغربية فى تقييم أسس العقيدة الإسلامية ، وتقويمها على ضوء العلم الحديث ! !

وكان لابد لمصلح مثل محمد عبده من أن يرفع صوته فى مثل هذه الظروف بمبادئه الإصلاحية . . وقد استطاع محمد عبده أن يدرس الواقع الوطنى والقومى والاجتماعى والعقيدى والتربوى والتوجيهى للشعوب الإسلامية ، واستطاع أيضاً أن يضع منهجاً إصلاحياً مفصلا وشاملا لكل هذه الجوانب ، واستطاع آخر الأمر أن يخلق مدرسة فكرية ودينية وتربوية كان لها أثرها الواضح فى توجيه الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى ، بل والحياة السياسية فيه بصفة عامة .

وتحت عنوان (التجديد فى الفكر الإسلامى) يأخذ الدكتور البهى فى الكشف عن اتجاه الفكر الإسلامى منذ بداية القرن العشرين ، فإذا هذا الاتجاه ينقسم إلى شعبتين : أولاهما : تستهدف التعبئة الروحية للإصلاح الدينى ، وتعلن الثانية ولاءها المطلق للمناهج الغربية ، فى الفكر والعمل على السواء . ويضرب مثلا لهذا النزع الأخير بكتاب (مستقبل الثقافة فى مصر) للدكتور طه حسين .

ويكشف البهى عن مصدر هذا الفكر المستورد فإذا هو التفكير المادى الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، الذى يزدرى الروحية أو المثالية الإنسانية ، ويحتفل بالقوة المادية دون غيرها ، وتنفيذاً لوصايا هذه الفلسفة المادية وبدافع من الحقد الصليبى يمضى الاستشراق فى تشويه حقائق الإسلام ويتابعه فى خطوانه المجددون فى الفكر الإسلامى الحديث ! !

وفى سبيل إظهار الصلة بين الفكر الإسلامى الحديث والفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر يتناول البهى بالعرض والتحليل فكرة (بشرية القرآن) من واقع كتاب (المذهب المحمدى) للمستشرق الإنجليزى (جب) وكتاب (الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين .

يرى « جب » أن مكة كانت ذات حضارة وزعامة دينية وأن سكانها كانوا متحضرين . . وأن حياة محمد كانت انعكاساً واضحاً لهذه البيئة وحيث أنها حياة معينة ومحدودة فدعوته لابد أن تكون كذلك معينة ومحدودة وليست عامة وهو فى دعوته الدينية وحكومته الإلهية قد استجاب لاتجاهات الحياة المكية من سياسية واقتصادية ودينية الخ !! وأن القرآن ليس جديداً كله على المكيين ، وفيه من المسيحية واليهودية

أشياء ، وهم حين عارضوه لم يكن ذلك لرفضهم فكرة الإيمان أو تمسكا منهم بتقاليدهم القديمة ، وإنما كان ذلك لأسباب اقتصادية وسياسية .. وإذن فالقرآن ـ عند « جب » ـ « انطباع » للظروف المحيطة بمحمد فى نفسه ! ! هو صنعة بشرية ، وليس وحياً من عند الله .

ثم يتتبع الدكتور البهى فكرة كتاب « الشعر الجاهلى » فى بعض نصوصه وتفاصيله لينتهى إلى أنه يلتقى مع كتاب « المذهب المحمدى » فيما ينادى به من مبدأ « بشرية القرآن » ! !

وتحت عنوان (الإسلام دين لا دولة) يتتبع البهى الأصول التاريخية لفكرة فصل الدين عن الدولة ، عند الغربيين ، فإذا هى ظروف مغايرة لواقع العالم الإسلامى ، فى ماضيه وحاضره ، بل إن ذلك الفصل الذى كانت تمليه طبيعة الدين المسيحى نفسه هناك تأباه طبيعة الإسلام هنا ؛ فنصوص القرآن لم تنصرف إلى العبادات والأخلاقيات فحسب ، بل عالجت أيضاً علاقات الأفراد فيما بينهم وعلاقات الجماعات الإسلامية بغيرها من الجماعات ، بمنهج تشريعى من الخصب والمرونة بحيث يستطيع أن يواجه حاجات البشرية المتطورة . . وإذن فتوقيت الجهاد بوقت الرسالة أو تفسيره على أنه رياضة نفسية أو روحية ، والإلحاح على أن الإسلام دين لا دولة . . كل أولئك محاولات لإهدار بعض هذا الدين وإهدار لاستقلال الجماعة الإسلامية وإلغاء لشخصيتها المتميزة .

ولما كانت هذه القضية الأخيرة . . قضية فصل الدين عن الدولة موضوع كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للأستاذ على عبد الرازق ، فقد تناول الدكتور البهى أفكاره الرئيسية بالعرض والتحليل ، ليدلل مرة أخرى على أن الفكر التجديدى الإسلامى الحديث ، إنما هو ظل وامتداد للفكر الغربى فى القرن التاسع عشر ! ! . فكتاب « الإسلام وأصول الحكم » يعتنق مبدأ « مثنوية الإنسان » إلى روح وجسد ، على الرغم من رفض العلم الحديث لهذا المبدأ ! ! وذلك ليسلب الإسلام ولايته السياسية ويقصره فقط على ما يسميه « ولاية القلب » ! ! وفى سبيل دعم هذه الفكرة يمضى الكتاب فى تأويل بعض الآيات بما يستقيم مع منهجه ، وقد يجد نفسه

أحياناً مضطراً إلى التوفيق بين الرأيين المتناقضين . . فهو يرى أن ما فى الإسلام من نظم سياسية أو حكومية ليست من جوهره ، وإنما هى من ملحقاته باعتبارها من مستلزمات « الزعامة النبوية » ! ! وإذن فالجهاد لم يكن شعيرة أو فريضة دينية ، وإنما كان وسيلة من وسائل تدعيم الملك الدنيوى ، وتنتهى كل مظاهر هذا الملك والسلطان بانتهاء « الزعامة النبوية » حين يلحق الرسول بربه ! ! ولا يبقى بعد ذلك إلا حكم مدنى أو سياسى وإن شئت لا دينى ! ! وهذا لا ينفى - فى نظر الأستاذ عبد الرازق - قيام وحدة دينية تنتظم البشرية كلها ! !

ثم يأتى دور الفكرة القائلة إن (الدين خرافة) ليتتبع البهى جذورها التاريخية الضاربة فى أعماق القرن التاسع عشر ، بل إلى ما قبل ذلك بقرون ، وإذا هو يرجعها إلى المذهبين الاسمى والتجريبى . أما الاسمى فيفرق الألفاظ من حيث دلالتها إلى تلك التى تعنى كائناً يشاهد ويحس - وهى الألفاظ الدالة على الأشخاص - وتلك التى لامجال لها إلا التصور الذهنى فحسب - وهى الألفاظ الدالة على الأنواع والأجناس - وحيث أن لفظ « الله » ليس من هذه ولا من تلك فإن مجاله هو الإيمان والاعتقاد وليس البحث العقلى الجدلى الإنسانى .

أما المذهب التجريبى فيرى أن مصدر المعرفة اليقينية الحقيقية ، هو التجربة الحسية وحدها ، أما محاولة البحث عن الحقيقة فيما وراء الظواهر الطبيعية الحسية فعبث لا طائل تحته ! ! ثم ينتهى المذهب التجريبى على يد « كومت » الفرنسى إلى مدرسة تدعو إلى المذهب الوضعى الذى يرى أن الفلسفة يجب أن تمر بمراحل ثلاثة : أولها : رد علل الأشياء إلى القوى الخارجة عن الطبيعة وهى القوى الإلهية . والثانية مرحلة البحث النظرى التصورى الخالص ثم مرحلة البحث التجريبى الوضعى آخر الأمر ، وعلى الإنسان أن يبدأ من ذاته إلى الجماعة بحيث يكون إلهه المجتمع والطبيعة !!

ويلاحظ الدكتور البهى ، بعد أن يستعرض محاولات الإصلاح الدينى فى فكر فلاسفة القرنين السابع عشر والتاسع عشر ، أنها كانت تستهدف تخليص المسيحية مما علق بها من عقائد غير معقولة كعقيدة التثليث ، وألوهية عيسى ، وعصمة البابا ، وأنهم بصفة عامة لم ينقضوا الإيمان فى ذاته .

أما المجددون عندنا فإنهم « كدون كيشوت » يحاربون أشباحاً لا وجود لها إلا فى تصورهم !!

وتحت عنوان (الدين مخدر) راح الدكتور محمد البهى يرصد الإرهاصات الفكرية التى تقدمت فلسفة ماركس ، ثم مضى يعرض أصول فلسفته ، ويحلل عناصرها .

وقد كنت أود أن أعرض بدورى دراسته القيمة فى هذا الفصل وما يليه من فصول بيد أن الحديث قد جاوز ما كنت أقدر له من مجال — وأرجو أن تواتينى فرصة دراسة (الدين مخدر) وكذلك الفصل الذى عقده عن فلسفة إقبال فى عدد قادم لما يتميزان به من عمق فى التفكير ، وإحاطة فى البحث .

وبعد فإذا كان هذا الكتاب قد جنح فى بعض صفحاته إلى ما يشبه التحامل ، أو بالأقل الانفعال ، وخاصة فى مناقشة كتاب (الشعر الجاهلى) للدكتور طه حسين ، فانا نحمد للدكتور محمد البهى استجابته السريعة لطبيعة العالم فى أعماقه ، فكان موضوعيا فى سائر كتابه ، ولهذا استطاع — بحق — أن يقدم مثلا جيداً للدراسات الجادة المستنيرة إلى المكتبة الإسلامية .